

رسالتي الى مدينة الشهداء: الموصل
الواقع والمستقبل
الحلقة الثانية

بقلم

الأستاذ الدكتور احمد عبد الله الحسّو

قبل نصف قرن زرت مدينة حلب - سلمها الله وأعاد اليها بهاءها ومكاتها -
وأمضيت في إحدى مكباتها ساعات وانا أقرأ نسخة نادرة من كتاب : تلخيص
مجمع الآداب) لابن الفوطي(ت 723هـ) ؛وهو مؤرخ عاصر في طفولته (14
سنة) سقوط مدينة احلامه بغداد بيد المغول سنة 656هـ ، وذاق إبان
ذلك ثم بعيدة مرارة الوقوع في اسرهم- وهو في هذا العمر الغض -
سنوات طويلا ،وقد دَوَّنَ عن ذلك الزمن الكثير الكثير من احداثه ، بيد ان من
اهم ما أثار في من ذلك قصة رواها عن رجلين وقفا يتأملان مدينة بغداد وما
تهدم فيها وما تكدس من اجساد شهدائها، والمشتتين الحيارى من رجالها
ونسائها واطفالها، ثم التفت احدهما الى صاحبه- وقد ألمه ما ارتسم على
: وجهه من حزن ويأس - فخاطبه قائلا

: : خفف عليك أحزانك يا صاحبي، فأجابه الرجل المحزون قائلا

يا لائمي في الأسي وقد عمّ أهلي

وكراما صحيت : قتل وأسر

أي عيش يصفوفو وأي ود

بعدا أصابه يستقر؟

لا تؤمل مسرة لمعنى

بحياة مبرها مستمر

ذهب الفاخرون بالمجد لا ينوون عودا ،

فليس في العيش فخر

هبك نلت المنى ،

وزيد في عمرك عمر

فأين زيد وعمرو؟

كان جواب الرجل المحزون انعكاسا صادقا لما كان يشعر به كل بغدادي
وهو يشهد الغزاة المغول ،يستريحون بغداد، ويغملون السيف فيها، ويهدمون
بنيانها، بيد ان الشاعر المحزون وبحكم زخم اليأس الذي عبرت عنه قصيدته

،يعمق- من حيث لا يدري - الواقع المأساوي في بغداد ، ويساهم في تجذير حالة التراجع والانهيال، غير ان ثمة صورة اخرى تضمنتها ادبيات مؤرخنا المشار اليه ؛ ابن الفوطي ومؤرخين آخرين ، وجدنا فيها احزانا من نوع آخر؛ احزانا لا تعترف بياس، ولا تقر استسلاما ، عبرت عنها شريحتان مهمتان في المجتمع البغدادي .

معهما تفتحت ابواب الامل وبدأت الحياة تدب في المدينة المتعبة شيئا فشيئا، واتسع ذلك ليشمل العراق كله .

اما الشريحة الأولى فتتمثل بمثقفي بغداد: (واعني بهم : علماءها وفقهاءها ورجال الأدب والفكر وشيوخ العلم في مدارسها) ، الذين ادركوا ان الغزو المغولي، وما اعقبه من هيمنة على مقاليد الامور، وبما يمثله من ثقافة غريبة عليهم، يشكل خطرا كبيرا، على هوية البلاد الثقافية، وبتزعها من اتمائها التراثي و التاريخي، فأعملوا عقولهم في الكيفية التي يمكن ان يتصرفوا بها؛ وهم وبلادهم تحت وطأة هيمنة لا ترحم ، فقابلوا السيف المغولي بالقلم و تسارعوا لإحياء مؤسسات التعليم وتنشيط حركة البحث، ففتحت مدارس بغداد واستحدثت اخرى غيرها والتحق شيوخ العلم بها، وتزاحم الطلبة للدراسة فيها ،وتنافسوا - كل في حقله - تأليفا وتصنيفا وتمكنوا من ان يدفعوا بعجلة الاحداث نحو ما يخدم البلد ويحافظ على هويته وحرته في التقدم، بل انهم اثروا في المغول انفسهم واستوعبوا كثيرا منهم ، اما الشريحة الثانية فهم اصحاب الخبرة من مهندسين وبنائين ومعماريين والذين اندفعوا بعد اشهر من الغزو، نحو ترميم ما تهدم وبناء ما استجد في مجال عمران المدن ومعالجة اشكالات الزراعة ونظم الإرواء على صعيد محيط بغداد وارجاء العراق كافة .

وقد نجحت جهود هاتين الشريحتين في تحقيق اهدافهما في حدود معقولة

مع هذا النموذج في اسلوب معالجة أزمة كبرى، يتضح كم هو مهم دور النخب المثقفة واصحاب الخبرة والمهارات في معالجة اشكالات مجتمعاتهم ، فهم بحكم ما يمتلكون من فكر وخبرة، يكونون دوما الاقدر على معالجة ما تواجهه بيئتهم من تحديات فهم الاعرف بها وهم منها واليها، وقد لاحظنا فيما ذكرناه أنفا كيف شخصوا ببيصيرتهم مكن الخضر المغولي ؛وهو قيمهم الهدمية وجهالتهم ،وكيف عالجه بقيم مناقضة اكدت الوجه الحضاري

المتمدن لبغداد، وحفظت للعراقيين هويتهم الثقافية والحضارية . ولقد نجحوا
فيما خططوا له و سعوا اليه ؛ وانه لنجاح ما كان ليكون، لولا الإيمان بروح
الامة وقدراتها وما تحمله من تراكم معرفي وقيمي، جيلا فجيلا، عبر آلاف
السنين

فهل نحن اليوم في الموصل امام موقف شبيه؟
وهل تستطيع النخب الموصلية ان تحول احزانها المعمقة الى حركة فاعلة
فترمم وتضمد وتبنى، وتأخذ بيد أم الربيعين،
نحو ما يعيد اليها دورها التاريخي ؟
: لا اريد ان ابسط الموقف فاقول
نعم انها تستطيع ان تقوم بهذه المهمة،
مع انها - اي النخب -هي الوحيدة التي يمكنها ان تفعل ذلك
إذا ما توفرت الظروف الموضوعية، وإذا ما اتيح لها ان تستعيد
انفاسها، وتوحد طاقاتها و في مقدمة ذلك، اجتماعها على كلمة سواء وعلى
. قواسم وطنية مشتركة

مشكلتنا- كأمة وكشعب وكنخب - اتنا لسنا امام جراح مدينة
نحبها وتحبنا فحسب ،

.بل امام امة وشعوب مُثخني الجراح

ان اية خطة تتحرى اعادة بناء الموصل؛ مدينةً ومجتمعاً
يجب ان تستند الى حلول علمية موضوعية مدروسة
تاخذ بنظر الاعتبار اشكالاتها المجتمعية
.وعلاقتها بمحيطها الحيوي القريب والبعيد

فهل الى ذلك من سبيل ؟
هذا سأطرح فيه رأيي المتواضع
في الحلقة الثالثة من مقالي هذا

